الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

# بيت الحكمة العباسي أنموذج للتعايش بين الاديان والحرية الفكرية

فؤاد يوسف قزانجي
استاذ في التاريخ والمعلومات

كانت الثقافة اليونانية قد انتشرت في الأوساط الاسلامية بأشكال مختلفة من أبرزها حركة الترجمة التي بدأت في عهد الخليفة المنصور وتوجت بتأسيس بيت الحكمة في عهد الرشيد (٢١٨ هجري / ٨٠٠ م) في الأرجح. وكان يجتمع فيه علماء من العرب والفرس والاذربيجانيين ومن المسلمين والمسيحيين والصابئة وان معظم هؤلاء العلماء والأطباء بدأوا كمترجمين ناشطين في حركة الترجمة العربية التي يعود الفضل بها الى الخلفاء العباسيين الأول وانتهوا بأنهم بعد مرور عقد من الزمن أصبحوا مؤلفين يشار إليهم بالبنان سواء في الفلسفة او الطب او الفلك وهكذا كان الكندي والخوارزمي وحنين بن اسحق والفزاري وثابت بن قرة ويوحنا بن ماسوية وغيرهم.

وسجل ابن النديم في الفهرست معلومات عما يقرب من سبعين علماً بين مترجم وطبيب وعالم وفيلسوف ومهندس وفلكي وذلك في القرنين الثالث والرابع الهجريين معظمهم من السريان او المسلمين ذوي الأصول العربية والفارسية والاذربيجانية والهندية مما يشير الى ان المرحلة الأولى اعتمدت على علماء الثقافات الأولى التي كانت موجودة قبل انتشار الاسلام الذين وضعوا اللبنات الأولى للبنى التحتية للحضارة العربية - الاسلامية الجديدة. وفي عهد الخليفة المهدي (١٢٧- ١٦٩ هجري) ازدهر علم الكلام الذي شارك في نشر المنطق والجدل الفلسفي وأشاع المناقشات الفكرية التي كانت تجري في بيت الحكمة او في ديوان جعفر البرمكي. كما كان المهدي قد عين ثيوفليس بن توما رئيساً للمنجمين في البلاط، وطلب المهدي من الجاثليق تيموثاوس الأول (٧٨٠ -٨٢٣ م) ترجمة عربية لنظرية المقولات العامة لأرسطو في المنطق، وتحققت الترجمة بمساعدة تلميذ تيموثاوس المدعو أبو نوح الذي كان أمين سر حاكم الموصل أبو عثمان الدمشقي (ت ٩٠٠). ومنذ عهد المنصور أدركت السلطة العباسية أنها إذا ما أرادت ان تؤسس دولة قوية قائمة على سياسة حازمة وعادلة، كان عليها ان تواجه بذكاء ودراية الأقوام المختلفة والاديان المتنوعة في الدولة العباسية الواسعة. ومما يدل دلالة لالبس فيها على الجدل والنقاش الذي قام بين الاديان والفرق والاثنيات المختلفة المعتقدات، هو العدد الذي يفوق الحسبان من الرسائل المعنية بالتفسير والمناظرة التي وضعت باللغة العربية خلال تلك الفترة. ويذكر الباحث ديمتري غوتاس، ان الكاتب (كاسبر) صنف في كتاب له، سبعاً وعشرين صفحة تحوي الاعمال او المقالات التي ضمنتها المناظرات بين المسلمين والمسيحيين وبين المسلمين والأقوام الأخرى، فإذا ما أضيفت إليها الاعمال التي تتعلق بالفرق المخالفة للإسلام، فأن هذه القائمة تتضخم على نحو كبير. المهم نجد انه وأول مرة يجد المثقفون في الشرق من كل جانب السبيل الى قراءة مؤلفات جديدة ذات أفكار مختلفة تثير النقاش وتدعم الرأي، واستخدمت في ذلك مقولات أرسطو ومنطقه وآراء اهل الكلام والمناقشة الحرة في دعم رأي العلماء المسلمين ودحض الآراء المتباينة. وعلى ذلك فأن البيئة المناسبة التي وجدت في بيت الحكمة العباسي في مشاركة عشرات من السريان والصابئة والفرس والاذربيجانيين والهنود اضافة الى العرب في حركة الترجمة العربية وما أعقبها في حركة تأليف واسعة في جميع العلوم والآداب العربية وقد جرت بأسلوب البحث والتقصي والتجربة العملية. ففي الطب أقيمت البيمارستانات في بغداد وكذلك أنشئت المراصد الفلكية في بغداد ودمشق والقاهرة في عهد المأمون وربما أنشئت مراصد صغيرة في منازل علماء الفلك كما جرت تجارب عملية في سقوط الضوء وفي استخدام البكرات والالات (مبادئ الميكانيكيا). وهكذا تهيأ جو متفاعل من الثقافات التي أسهمت في خلق مناخ علمي موضوعي قلما حدث نظيره في العصور الوسطى، كما صبت التيارات الثقافية المختلفة في بوتقة العلوم والثقافة العربية الجديدة بعد ان تم لها استيعاب ثقافات العصور اليونانية والسريانية والفارسية بفضل المشاركة والتلاقح الحضاري في تقبل الفكر الأخر ومناقشته بشكل مفتوح. ان هذا الموقف الذي جرى من خلال حركة الترجمة العربية او في بيت الحكمة يدل على حال العيش المشترك في البلدان العربية على صعيدي الفكر والممارسة. ان البحث في العلاقة المشتركة بين العلماء المسلمين من كل جنس ولون وبين الاديان الأخرى المتجاورة كالنصرانية والصابئة وربما أيضا الزرادشتية (المجوس) تمثل اعلى مستوى للتفاهم الإنساني. ولقد أشعل نشاط بيت الحكمة روح المنافسة في الترجمة والتأليف، كما أعطى للثقافة العربية - الاسلامية الجديدة ابعاداً عميقة الجذور بالمجتمع العربي وأصالته الحضارية البابلية والآشورية والسريانية وغيرها. التي ساعدت على استقطاب جهود الجماعات والأثنيات في المشرق الاسلامي وخاصة في عهد المأمون الذي فتح الأبواب على مصاريعها للمناقشات الفلسفية والمنطقية وحرية الرأي. وعلى أية حال فأن بيت الحكمة باستقطابه نخبة من العلماء والأطباء والمترجمين الأفذاذ، قد هيأ الجو الذي يتيح وجود قواعد وأسس للبحث العلمي والتأليف الجاد وكان وجود المعتزلة وأخوان الصفا في البصرة قد أضاف الى شعلة الثقافة والفلسفة وعلم الكلام، نوراً ذا إبعاد إنسانية. وفي هذا العصر وصل الى المثقفين في إيران والعراق اهم كتب التراث الفارسي باللغة العربية التي بدأت تنتشر في عموم إيران في العهد العباسي وكانت حركة الترجمة العربية التي كان مركزها بيت الحكمة قد شكلت مشروعاً حضارياً انسانياً كما يذكر المؤرخ عبد الجبار ناجي، الذي يمثل فرصة تاريخية شهدها المجتمع العربي فالعلماء من فلاسفة ومتكلمين ممن ينتمون الى ثقافات وأديان ومذاهب مختلفة وضعية او سماوية كانوا يعملون جنباً الى جنب في الترجمة والتأليف في مختلف العلوم والثقافات إضافة الى الفلسفة والطب التي اشتهرت بها اليونان.

وهكذا نجد في هذا الأفق الواسع من المشاركة العلمية والتسامح الديني في عهد الخلفاء العباسيين الأول قد أنتج تلاقحا حضارياً راقياً.

# العـــــــراقيـــــــون في دول الجـــــــوار

مرة أخرى ومجددا تعلن دول جوار عن نيتها التعاطي مع دخول العراقيين إلى أراضيها بالتأشيرة المؤقتة فضلا عن جملة إجراءات تقييدية أخرى بشأن وجود العراقي وطبيعة عيشه على أراضيها. ومرة أخرى تكون الأفضليات لمصلحة أصحاب الأموال واستثنائهم من بعض تلك القرارات. وإذا كان من الطبيعي أنْ تتخذ أية دولة القرارات التي تراها لمصلحة الشعب والوطن فإنَّه من الصحيح أيضا أن تجد تلك القرارات فرصتها للمراجعة والتفاعل بقرارات بعينها من طرف الحكومة العراقية تعمل على النهوض بمسؤوليتها تجاه العراقيين المهجّرين من بيوتهم أو من الوطن..

الدكتور تيسير عبدالجبار
أكاديمي ومحلّل سياسي

وفي الوقت الذي تحدثنا فيه عن لزوم فتح مكاتب لمتابعة مشكلات العراقيين في كل من سورية والأردن ومصر بسبب الحجم المميز لوجودهم هناك فإنَّ الاستجابة ما زالت بالخصوص دون الحد الذي يمكننا من قبول ردود الفعل السلبية في تعاطي الحكومة العراقية الرسمي مع هذه القضية الوطنية الكبرى.. فحجم بالملايين من مواطني العراق ينتشرون اضطرارا في هذه البلدان يلزمنا التوقف مرات لنضع الأمر بين أولويات أخرى على درجة من الخطورة والحاجات التي تستدعيها الضرورة..

عليه وجب على السفارات العراقية في هذه البلدان سريعا التعاطي مع الأمر بفتح مكاتب متخصصة مستقلة لمتابعة أمور النازحين والمهجّرين والأمر لا يتحمّل التأجيل والتسويف فحيوات الناس ومصائرهم تحت رحمة الظروف المعقدة المتداخلة التي تطيح بتلك العوائل وأبنائها بين سقوط الآباء والمسنين صرعى الظروف الصحية وبين ضياع أبناء وبنات في لجج الاستغلال والجريمة وتفشي العلاقات المرضية وتعاطي أشكال السلوك البائسة فضلا عن فقدان الرعايتين الصحية والتعليمية...

وإذا كان بعضهم سيذهب إلى مدارس محدودة الإمكانات فإن الغالبية لن تجد فرصتها تلك بسبب من تعقيدات أمور التأشيرات وطبيعة الإقامة ومتعلقات الأوراق الرسمية ومتابعتها من جهة مسؤولة عراقية غير موجودة عمليا..

من الجهة الأخرى تبقى قضية المسؤولية المادية والجهة التي ستدفع لعراقيي الدول الثلاث قضية شائكة! فلا الحكومة العراقية خصصت في ميزانيتها مبلغا لمعالجة أزمة النزوح والتهجير ولا الدول التي استقبلت هذا الحجم الكبير بمستطاعها بمفردها التعاطي مع هذا الدخول المتنامي المفتوح ولا الدول العربية أقرت مشروعا للتعاطي مع الأزمة وطبعا ليس لنا أن نطلب من الجهات الدولية ومنظماتها أن تفرغ أنشطتها من أجل حالة واحدة كالحالة العراقية...

إنَّ المطلوب أن نجد على وفق آليات عمل الحكومة العراقية الحالي المتداخل مع جهات الدعم الدولي، حلا مناسبا بتخصيصات عاجلة في الميزانية لكي نتدارك أزمات عواقبها لن تمتلك فرصة المعالجة إذا ما مرّ الوقت.. كما يجب إلزاما تشكيل خلية عمل طارئة باسم المهجّرين سواء داخل الوطن من المحتمين مؤقتا بمحافظات أخرى غير محافظاتهم محملينها أعباء وتداخلات طارئة فوق ما هي فيه... على أن تكون تلك الخلية خلية طوارئ بمستوى يقف على رأسه ثلاث وزارات هي المهجرين وحقوق الإنسان والمالية فضلا عن أية جهات مطلوبة أخرى كممثلي الخارجية والتعليم والصحة..

وكما في عديد من دعوات المعنيين بحقوق الإنسان يلزم اليوم قبل الغد أن تتعاضد جهود إقليمية عربية وغيرها للتعاطي مع الحالة ووضع الحلول الناجعة في استقبال هذه الأفواج الضخمة بخاصة في ظروف شتاء قابل بكل ما يحمله من غيوم الطبيعة والحياة المطرة غضبا وآلاما على تلك الملايين...

ونقصد هنا الجهات الفاعلة والرسمية المعنية في الدول التي استقبلت العراقيين مشكورة وجهة جامعة الدول العربية ولجانها المعنية بالقضية العراقية، إذ قضية ملايين العراقيين في ظروفهم تلك هي مفردة ذات أولويات من الخطورة بمكان إغفالها أو التلكؤ في التفاعل معها...

ونحن في وقت نحمّل فيه رسميا جميع الجهات المعنية مسؤولياتها تجاه ملايين العراقيين في المخيمات وفي حالات الاستقبال التي لا تغطي الضرورات الأساس للعيش، نعرف أهمية عقد الاتصالات العاجلة مع مختلف دول العالم لدعم أنشطة معالجة تلك الأزمة المأساوية وجراحات الناس الفاغرة طلبا لعلاج يشفيها..

ونوجه هنا رسائل عاجلة طارئة لكل الدول والمنظمات الدولية والإقليمية للتدخل الفوري المباشر في متابعة ظروف العيش اللاإنسانية والافتقار للخدمات بكل أشكالها من صحية وتعليمية وخدماتية حياتية ضرورية.. واثقين من أننا في وقت نعلن فيه مجددا وتكرارا أن العراق منطقة أزمة وطوارئ يبقى بحاجة لتفاعلات إنسانية مهمة ومنها حالة أولوية المهجرين داخل الوطن وخارجه فهم في أبسط الإحصاءات ناهزوا الخمسة ملايين إنسان...

فلتتضافر جهود منظماتنا العراقية المتخصصة بشؤون حقوق الإنسان وتتابع مسؤولياتها ومهامها في عقد الاتصالات المناسبة بالخصوص.. إلى جانب ما ينبغي أن تنهض به سفارات العراق وسفراؤه الرسميون والشعبيون وبفاعلية جدية بقدر أو حجم الكارثة المحيقة بنا وبأهلنا...

ولا ينبغي لبعضنا الانشغال في خطابات تحميل هذا الطرف العربي أو الأجنبي مسؤولية تقع في أعناقنا نحن العراقيين ماديا ومعنويا.. فالأمور لا تنتظر رؤى ومفاوضات وسفسطات أحيانا وتجريحا بالآخرين فيما نحن منشغلون عن مهامنا في أداء رسوم الكارثة الطارئة التي ستنقشع بتضافر الجهود وبتقديرنا العميق لأيدي المساعدة من دول الجوار المعنية ودول العالم والمنظمات المختصة... فإلى العمل الفوري العاجل وبوركت كل يد معطاء تضع الجهد فوق الجهد لتمسح على رأس طفل أو شيخ أو سيدة.

تصور أولي طارئ: أن تتشكل خلايا عمل من ممثلي حقوق الإنسان في بلدان المهاجر تنهض بمسؤولية الاتصال الإعلامي والرسمي لتحريك الأنشطة المناسبة تجاه القضية وأن يجري التنسيق بين الجهات الشعبية للجاليات والرسمية للسفارات العراقية بما يرتقي لمستوى أداء المهام وحتى التنسيق مع سفارات الجامعة العربية والأمم المتحدة لما يفضي لمعالجة جدية مسؤولة..

ومن المقترحات إرسال أشكال دعم عاجلة من الأدوية والقرطاسية والأدوات المدرسية فضلا عن إرسال وفود طبية وتعليمية بحجم مناسب بشكل دوري لدعم جهود الدول الثلاث وداخل العراق في المحافظات الجنوبية وفي إقليم كوردستان... من جهة أخرى على الجهات الرسمية المعنية رسم الدراسات والمحددات التي توضح الحاجات العاجلة مع وضع الاستراتيجيات المناسبة للتعاطي مع الأزمة..

# ستراتيجية طالبان الجديدة: أخطف وطالب

د. عبدالله المدني
محاضر اكاديمي - البحرين

أثبتت حوادث اختطاف المدنيين الأجانب التي قامت بها الجماعات الراديكالية في الشرق الأوسط، ولا سيما في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، أنها إن نجحت أحيانا في حصول أصحابها على بعض مطالبهم أو مكنتهم من تلقي أموال ضخمة في صورة فدية، فإنها في المحصلة النهائية أضرت بقضيتهم وألبت الرأي العام عليهم.

لكن حركة طالبان البائسة لا تريد أن تتعلم من دروس التاريخ، فقادتها حماقتها في الأشهر الأخيرة إلى تبني أعمال خطف المدنيين الأجانب العاملين في أفغانستان كاستراتيجية جديدة للجماعة. بل صرح المتحدثون باسمها من أمثال قاري محمد يوسف ويوسف احمدي مؤخرا بأن الحركة وجدت في أعمال الخطف أداة فاعلة للنيل من حكومة كابول والحكومات الاجنبية المساندة للأخيرة، واكتشفت مدى تأثيرها في المجتمعات الديمقراطية حيث بامكان الرأي العام الضغط على الحكومة أو حتى إسقاطها إن لم تستجب لمطالب الخاطفين.

والمعلوم أن الطالبانيين لجأوا منذ أوائل العام الجاري إلى التركيز على عمليات خطف المدنيين الأجانب، ولا سيما الغربيين منهم، من أولئك العاملين في مشاريع البناء وتقديم الخدمات الإنسانية في البلاد أو الزائرين لاستطلاع الأوضاع وكتابة التقارير الصحفية. ففي السادس من مارس الماضي اختطفوا الصحفي الإيطالي "دانيال ماستروغياكومو" مع مترجمه وسائقه الأفغانيين في ولاية هلمند الجنوبية، ليطلق سراحه لاحقا مقابل الإفراج عن خمسة من مقاتلي الحركة من سجون كابول. أما مرافقاه الأفغانيان فقد جز عنقيهما. وفي ١٨ يوليو المنصرم اختطفوا مهندسين ألمانيين مع خمسة من زملائهم الأفغان من موقع لبناء سد في إقليم واردك، ليعثر لاحقا على جثة احدهما مقتولا فيما لا يزال الآخر أسيرا لدى الحركة التي تطالب بانسحاب القوات الألمانية (٣٠٠٠ عنصر) العاملة ضمن قوات الناتو كثمن لتحريره. وفي حادثة أخرى وقعت في ١٨ أغسطس المنصرم، اختطفوا امرأة ألمانية من العاملات في مجال إغاثة الأيتام من مطعم في ضواحي كابول، لكن الشرطة الأفغانية استطاعت لاحقا تحريرها.

أما حادثة الاختطاف الأكبر من نوعها منذ سقوط نظام طالبان في تشرين الأول ٢٠٠١ فقد جرت في ١٩ تموز الماضي حينما أقدم الطالبانيون على خطف ٢٣ مدنيا (١٨ امرأة و٥ رجال) من رعايا كوريا الجنوبية في أثناء تنقلهم برا من كابول إلى قندهار. ولم يشفع لهؤلاء أنهم فضلوا عدم الاستمتاع باجازاتهم السنوية من اجل القدوم طواعية إلى أفغانستان لتقديم خدمات تتراوح ما بين التطبيب وتعليم الإنجليزية ومهارات استخدام الكمبيوتر للأطفال.

وبطبيعة الحال لم تكتف حركة طالبان باختطافهم وإبقائهم كرهائن، بل عمدت إلى قتل رجلين منهم لإثبات جدية تهديداتها بقتل الآخرين إن لم يستجب لمطالبها التي تمثلت في إطلاق سراح مقاتلي الحركة المعتقلين وسحب سيئول لنحو مائتين من قواتها العاملة في أفغانستان في مجالات إنسانية مساندة للقوات الأمريكية، مع تعهدها بمنع قدوم رعاياها المدنيين مرة أخرى إلى أفغانستان.

والحقيقة أن حركة طالبان سعت إلى تحقيق أكثر من هدف من وراء هذه العملية الدرامية المثيرة التي صاحبتها تصريحات مضحكة مثل أن الحركة انطلاقا من تمسكها الصارم بمبادىء الشريعة الإسلامية والتقاليد الأفغانية لا تجيز التعرض للنساء لكنها أجبرت على خطفهن من اجل المقايضة فقط.

فإضافة إلى هدف تحرير رجالها المعتقلين في سجون كابول وإجبار سيئول على سحب قواتها من البلاد، هدفت الحركة إلى الضغط على حكومة كابول وإظهارها في صورة من لا يملك حولا ولا قوة، وإلى إحداث شقاق بين سيئول وواشنطون في وقت حلت فيه الحكومتان خلافاتهما حول كوريا الشمالية وصارت مواقفهما متقاربة، وإلى تأليب الشعب الكوري الجنوبي على حكومته المتهمة بالمشاركة الفاعلة في الحرب على الإرهاب خاصة مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية في ديسمبر القادم. إلى ذلك يعتقد أن طالبان هدفت من وراء اختطاف الكوريين واحتجازهم في أماكن متفرقة، استخدامهم لبعض الوقت كدروع بشرية وبما يجبر خصومها على تجميد ضرباتهم الجوية ضدها وبالتالي حصولها على فترة لالتقاط الأنفاس والاستعداد لعمليات جديدة. وبطبيعة الحال كان هناك هدف الحصول على فدية مالية ضخمة في حال فشل تحقيق بقية الأهداف.

وبقراءة ما انتهت إليه العملية، يمكن القول بأن طالبان قد حققت بعض تلك الأهداف. حيث تضمنت الصفقة التي عقدتها مع مبعوثي سيئول تعهدا من الأخيرة بسحب كافة رعاياها المدنيين من أفغانستان مع نهاية أغسطس، وسحب قواتها مع نهاية العام الجاري. لكن الأمر الذي لا يزال موضع جدل هو: هل حصلت طالبان على فدية مالية مقابل إطلاق سراح المخطوفين الكوريين؟

فالمتحدث باسم حكومة كوريا الجنوبية نفى حصول مثل هذا الأمر، والناطق باسم البيت الأزرق الرئاسي في سيئول اكتفى بالقول بأن بلاده فعلت ما كان ضروريا لعودة رعاياها سالمين. غير أن مراقبين كثر يجزمون بدفع فدية مالية كبيرة، خاصة أن احد قادة طالبان الميدانيين صرح في مقابلة هاتفية مع إحدى وكالات الأنباء - شريطة عدم الإعلان عن اسمه - بأن صفقة الإفراج عن الرهائن تضمنت دفع ٢٠ مليون دولار نقدا، وأن هذا المبلغ سوف ينفق على شراء أسلحة وإعداد مقاتلين جدد للقيام بعمليات انتحارية. وإذا كان هذا دليلا لا يعتد به، فان ما يمكن الاستناد إليه هو أن كل عمليات الاختطاف الإرهابية السابقة التي كان ضحاياها كوريين جنوبيين انتهت بدفع فدية مالية.

والمثير في الأمر أن كل تلك العمليات تقريبا وقعت في دول إسلامية وكان وراءها ميليشيات أو جماعات مسلمة، ومن أمثلتها اختطاف جندي كوري في العراق في عام ٢٠٠٤ ، ومن قبلها اختطاف عامل بناء كوري في نيجيريا واختطاف صياد كوري في الصومال. لكن العملية الأكثر إثارة جرت في لبنان في كانون الثاني ١٩٨٦ حينما اختطف مسلحون السكرتير الثاني في سفارة كوريا الجنوبية، بعدما اجبروا سيارته على التوقف في بيروت الغربية، لينضم هذا الدبلوماسي إلى ٣٨ دبلوماسيا أجنبيا آخر كانوا قد اختطفوا في بيروت خلال سنوات الحرب الأهلية. ولم يطلق سراح الرجل إلا في تشرين الأول ١٩٨٧، وبعدما تلقت الجماعة التي أعلنت تبنيها للعملية واسمها "الفرقة الخضراء" فدية مقدارها مليون دولار من اصل ١٠ ملايين طالبت بها، وذلك طبقا لما ذكره رئيس البرلمان اللبناني نبيه بري الذي كان وقتذاك قائدا لميليشيات أمل المشاركة في السيطرة على بيروت الغربية.

وجملة القول، انه إذا كانت طالبان قد حققت بعض أهدافها من عملية الاختطاف، فإنها تسببت في إثارة الكوريين ضد مواطنيهم المسلمين البالغ تعدادهم نحو ٣٥ ألف نسمة والذين طبقا لإمام الجامع المركزي في سيئول "سليمان لي هانغ" لم يواجهوا يوما فترة عصيبة كتلك التي حدثت في الشهرين الماضيين، إلى الحد الذي اضطرت معه الشرطة الكورية الجنوبية إلى حراسة الجوامع والمقار الإسلامية منعا لتهديدها أو استهداف مرتاديها. لكن أنى للطالبانيين وزملائهم في تنظيم القاعدة الإجرامي أن يدركوا تبعات أعمالهم الحمقاء وآثارها السلبية على الأقليات الإسلامية في الخارج؟